

obeikandi.com

إعلام

ينقل نص أدبي قديم صورة لإحدى مراحل عصور الانحطاط عندما كان السيد يقول لأحد مواليه أو خدمه:

- وافقني أيها العبد وافق!

فيرد المولى قائلاً:

- نعم يا سيدى نعم!

- أريد أن أزور المقابر!

- نعم يا سيدى نعم، فما زيارة المقابر إلا عظة وعبرة ومنفعة لا يقوم بها إلا صاحب عقل كبير وأخلاق رفيعة ومكانة عظيمة.. و..

- ولكننى عدلت عن زيارة المقابر!

- نعم يا سيدى نعم، فلن تلقى هناك إلا العظام البالية التى تجلب لك الهم والغم فما أعظم عقلك الذى أشار عليك بالعدول عن هذه الزيارة و..

- وافقني أيها العبد وافق!

- نعم يا سيدى نعم!

- سأقيم عرساً وأتزوج امرأة أخرى!

- هنيئاً لك يا سيدى بهذه الفكرة العظيمة التى تجدد بها شبابك وتزين بها بيتك بعد أن تقدم العمر بزوجتك الأولى التى ذبل جمالها وضعفت

صحتها وما عادت تصلح لرجل مثلك!

- ولكننى عدلت عن إقامة العرس!

- نعم ياسيدى نعم، فما الزواج الثانى إلا دليل عقوق ونكران لزوجتك ذات الحسن والجمال التى تحفظ لك الود وتملأ عليك البيت هناء وسعادة وأولاداً!

ولعل سيد عصرنا الحديث قد صار الآن رئيساً لدائرة من الدوائر أو

زعيمًا لحزب من الأحزاب أو مسئولاً سياسياً لتنظيم يحكم البلاد، وسوف يلتفت السيد الجديد ليجد عبده الآن يحمل ناقل الصوت أو آلة التصوير أو جهاز الإبراق الصحفي، فقد تفنن أسياذ عالمنا الثالث في جعل الإعلام الذى يتبع الدولة وسيلة تطويل وتزوير بدل أن يكون وسيلة نقد وتوجيه وتثقيف. وما أن يقول السيد الجديد:

- وافقنى أيها العبد وافق!

حتى يتقدم الإعلام الحكومى قائلاً:

- نعم يا سيدى نعم!

فيشير السيد الجديد إلى مواقع القوى العظمى على الخريطة ويقول بلغة عربية فصيحة:

- لقد قررت أن أعقد حلفاً مع أيسلندا!!

فيجيب مكبر الصوت قائلاً:

- نعم يا سيدى نعم، لقد عرفت كيف تختار حليفاً قوياً منيعاً قادراً على ردع الأعداء، تربطك به الأواصر التاريخية والروابط الثقافية وتجمع بينك وبينه العوامل الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والأمنية فهنيئاً لك بهذا العقل الكبير.

- ولكننى أرى أن أعقد الحلف مع «جانبولاد».

- نعم ياسيدى نعم، فماذا كنا سنستفيد من جزيرة بأقصى الشمال لامتلك من مقومات الحياة إلا جرافات الثلوج وقوارب الصيد، أما جانبولاد فما أكثر الروابط التى تربطنا بها وعلاقات النسب والمصاهرة بيننا وبين أهلها وفوق هذا وذاك فهى تقع على مدار الجدى وهذا طالع سعد وهناك دليل خير وبركة فالحمد لله الذى هدانا لهذا الذى هدانا لهذا الرأى العظيم.

- لقد تذكرت الآن أن جانبولاد مجرد اسم وهمى لبلاد خيالية

قرأت عنها فى إحدى الروايات!

- نعم ياسيدى نعم، ومع ذلك فسنعقد معها أعظم الأحلاف ونبرم معها اتفاقيات التبادل التجارى والثقافى والدفاع المشترك ونُحيل الخيال حقيقة والوهم واقعاً بفضل ما لديكم من حكمة وعبقريّة.

تتغذى نشرات الأخبار فى إذاعات العالم المسموعة والمرئية على ما يحدث فى الدنيا من حروب وفواجع وكوارث. إن هذه الحوادث المفجعة تشكل المادة الرئيسية لأى نشرة أخبار. ولذلك فإنه لم يعد ممتمعاً أو مسلياً أو جالباً للفخر أن يسمع الإنسان اسم بلاده يتكرر كثيراً فى هذه النشرات. إن الذين تغربوا عن أوطانهم من أبناء البلاد العربية غالباً ما يتشوقون لسماع أخبار ما يحدث فى بلادهم منقولاً عبر إذاعات وتليفزيونات البلاد التى يعيشون فيها. وهم عادة يبدؤون أكثر لهفة وحماساً لسماع هذه الأخبار فى المراحل الأولى لإقامتهم فى بلاد الغربية، ثم يكتشفون شيئاً فشيئاً حقيقة المثل الأجنبى الذى يقول:

«الأخبار الطيبة هى ألا تكون هناك أخبار» ومعنى ذلك أن أى أخبار تسمعها عن طريق هذه الأجهزة الإعلامية التى تخصص حصّة صغيرة لنشرات الأنباء لن تكون على الأغلب أخباراً طيبة، إذ إن تليفزيون البى بى سى أو الآى بى سى، لن يهتم كثيراً إذا ما كان موسم الأمطار فى القرية التى جئت منها خصيباً هذا العام أو أن الغلال أكثر وفرة من العام الماضى أو أن مشروعاً إسكانياً قد تم تنفيذه أو مدرسة تم افتتاحها أو أن نسبة النجاح فى الثانوية العامة قد سجلت ارتفاعاً قياسياً هذا العام. لن يأتيك بالتتائج التى حققها الإحصاء العام لعدد السكان وإنما يأتيك بإحصاء عدد القتلى والجرحى فى حادث اعتداء على الحدود أو نتيجة سيارة مفخخة أو كارثة

من كوارث السير التي تحدث في الأرض والسماء، لن يأتيك إلا بأخبار مضاعفات النزاع الذي ينشب بين بلادك وبلاد أخرى وما فعلته الأطراف الدولية لفض هذا النزاع.

وإذا لم تكن بلادك قوة عظمى مثل روسيا أو أمريكا أو على الأقل إحدى بلاد العضوية الدائمة في مجلس الأمن ممن تهتم الإذاعات بتحركات قاداتها واجتماعاتهم لما له من تأثير في السياسة الدولية فإنك لن تحلم بخبر يأتي من بلادك إلا إذا اكتسى طابعاً تراجيدياً، إذ ما أهمية أن يهتم العالم بقطر صغير إذا لم يكن لشيء مشير أو مريع.

إننا لانسمع كثيراً في نشرات الأنباء أخبار الترويج أو الدنمارك أو هولندا أو السويد أو سويسرا وهي أكثر بلاد العالم تقدماً وحضارة. بل إن أغلبنا لا يعرف أسماء قاداتها وحكامها بينما تجعله الأحداث الفاجعة يسمع كل يوم أخبار أوغندا أو نيكارجوا أو فولتا العليا ويحفظ أسماء قاداتها مع أنها بلدان بائسة فقيرة متخلفة، قليلة العدد وضيئة الشأن في الحسابات الدولية. لقد صار الوطن العربي مصدراً أساسياً ومورداً مهماً من الموارد التي تعيش إذاعات العالم على مخزونها الكارثي. إن الاستثناء الوحيد الذي حدث في السنوات الأخيرة جاء بفضل الانتفاضة التي شهدتها الأرض المحتلة، فبرغم أن نشرات الأخبار كانت تنقل أحداثاً مؤسفة عن الضحايا الذين يسقطون من أهلنا وأبنائنا فإن الجانب الإيجابي فيها أنها كشفت عن الوجه الحقيقي لدولة الكيان الصهيوني. هذا الوجه الذي ظلت إسرائيل تخفيه عن الرأي العام تحت أكداً من الأصباغ وفتون الدجل والتمويه والتنكر فجاءت الانتفاضة ترفع القناع وتزيل الأصباغ وتكشف للعالم حقيقة هذا الوجه البشع الكريه.

يمكن القول إن كل محطات التلفزيون في أقطار العالم العربي تتبع الحكومات (وأقول «يمكن» لأن ما يسمى حكومة في لبنان لم يعد لها من النفوذ ما يجعلها قادرة على إدارة هذه المحطات فسقط كل شيء في أيدي زعماء الطوائف ولوردات الحرب الأهلية).

والعالم العربي ليس ظاهرة فريدة في هذا المجال، لأن هذا هو الحال مع المحطات التلفزيونية في تسعة أعشار بلاد العالم.

وأن تتولى الحكومة احتكار الإرسال المرئي ليس معناه أن الأمر صار مشيراً للريبة والشبهات، إذ ليس بالضرورة أن يكون التلفاز الحكومي شراً كله. وبما أن الحكومات تتفاوت في درجات السوء والصالح فإن محطات التلفزيون لن تكون إلا تعبيراً عنها وانعكاساً لها ومهما تباينت هذه الحكومات فإن أحداً لا يقول إن الشركات الخاصة مثلاً أفضل منها أو إنها أكثر فائدة ونفعاً وأعظم حرصاً على مصالح المشاهدين.

ولعل أفضل صيغة لإدارة هذا الجهاز البالغ الفعالية هي الصيغة التي وصل إليها أهل الجزيرة البريطانية عندما جعلوا من هيئة إذاعتهم مؤسسة مستقلة، تحررت من سيطرة المعلنين والشركات الخاصة وأموال المستثمرين، فهي مؤسسة يتولى المواطن تمويلها عن طريق الرسوم الخاصة بحيازة أجهزة الاستقبال، وتديرها هيئة من الأمناء ولا يحكمها إلا ميثاق الشرف الذي اتفق عليه العاملون بها وهي صيغة تحتاج إلى بيئة وصلت في تدرجها الحضاري واستقرارها السياسي وازدهارها الاقتصادي شأواً عالياً.

لقد أصبح التلفاز أخطر مؤسسة لتوجيه الرأي العام، ومعنى ذلك أن الحكومة عندما تتولى أمره فإنها ينبغي أن تديره بمثل ما تدير سياستها التعليمية، وهذا للأسف الشديد لا يحدث في معظم تلفزيونات العالم العربي. إن الاهتمام في هذه الأجهزة إنما يوجه عادة إلى نشرات الأخبار

والبرامج السياسية، بينما ترك بقية المواد والبرامج لصغار الكتبة والموظفين يتولون بذوقهم اختيارها وتقديمها للجمهور، ومعنى ذلك أنها ترك لهم مهمة تكوين أذواق المشاهدين وصياغة الوجدان الجماعى لأبناء المجتمع.

إن واجب الحكومة وهى تتولى أمانة هذا المرفق الثقيفى والتعليمى الخطير أن تستعين بمجلس من المفكرين والعلماء والمبدعين والمربين يتولون معها مسئولية إدارته ورسم سياسته لكى لا يتحول من جهاز تثقيف وتنوير وترفيه إلى جهاز تجهيل وتعتيم.

استاءت إحدى الحكومات من نتائج الموسم الزراعى فى محافظة من محافظاتنا وعرفت أن السبب يكمن فى ما حدث للتربة من تلف نتيجة الاستهلاك ونتيجة عدم استخدام الأسمدة التى لا يعرفها فلاح هذه المنطقة، فسارعت مشكورة إلى جمع مزيد من الأزبال والنفايات والفضلات لاستخدامها فى إنتاج كميات إضافية من السماد تغطى حاجة هذه المنطقة، وقررت توزيعها مجاناً على فلاحيتها حتى يمكنهم التعرف على فوائد هذا السماد ليتولوا بعد ذلك شراءه بأنفسهم. إلى هنا والأمر طبيعى يحدث مثله فى أى مكان من الدنيا وتقوم به أحياناً الشركات التجارية التى تسمى لترويج إنتاجها الجديد لتوزيع كميات منه مجاناً لتعريف الناس بهذا الإنتاج وإغرائهم باستهلاكه. ولكن ما لا يمكن أن يحدث مثله فى أى مكان آخر من الدنيا غير عالمنا العربى، هو ما يعقب هذا الإجراء من تعبئة إعلامية لإظهار منجزات الحكومة وخدماتها الجليلة للفلاحين، وسرعان ما تأتى البعثات الإعلامية من مصورين ومذيعين لنقل آثار هذه المكرمة الجديدة من مكارم الحكومة، وإذا بقرى تلك المحافظة التى ظلت بعيدة عن اهتمام الإعلام ترى صور مواطنيها فى التلفزيون وهم يشكرون ويهتفون، ويدخل

الإعلاميون إحدى هذه القرى لأول مرة، ولأن لهذه القرية مشاكلها مع الماء والكهرباء ولأهلها هموماً تتعلق بالعلاج والتعليم والسكن وغلاء الأسعار فهم يهرعون لإبلاغ مطالبهم لهؤلاء الزوار الكبار، ولكن البعثة التلفزيونية لا تريد أن تستمع إلى المشاكل والهموم، إنها ساعة للفرح وليست ساعة للأنين والتشكى، لقد وصل السماد إلى القرية ووجب أن تدق الطبول وتحرق الأبخرة تمجيداً للحكومة العظيمة، ويدور مشهد من أكثر المشاهد طرافة ومأساوية في ذات الوقت فهي هو فلاح يغطى وجهه بالبؤس، مصاب بأمراض الأنيميا والتراخوما والشيخوخة المبكرة، يظهر بملابسه الرثة المتسخة وقد وضعوا أمامه كومة من السماد ليرد على أسئلة المذيع، عن تعلق المواطنين بحكومتهم التي أهدتهم السماد مجاناً فيستخدم مهارته الإذاعية من أجل وضع الكلمات في فم الفلاح المسكين لتعرف منه أنه لولا هذا السماد لصار الآن أعمى أو كسيحاً أو أبكم. فقد حماه سماد الحكومة من العاهات وحمى أولاده من الجنون وحمى قريته من الزلازل التي كانت ستداهمها لولا هذا السماد العجيب الغريب، ويمضى المذيع في إذلال هذا الفلاح وكأن هذا السماد الذي أرسلته الحكومة إكسير الحياة وليس مجرد نفايات وفضلات وأزبال.

تذكرت وأنا أقرأ في الصحف أخبار الدول الاشتراكية التي تستعد لفتح إذاعاتها المرئية والمسموعة للإعلان التجارى، حفل تعارف على ظهر باخرة سياحية، عندما جاءت موظفة الاستقبال تسألنى عن هوايتى لتسهيل مهمة التعارف والتقديم، ومتأثراً بجو الإجازة والسياحة، وابتعاداً عن التورط فى الحديث عن هواية تثير الجدل والنقاش وتجلب الخصومة والخلاف، قلت للموظفة بأسلوب ساخر إن هوايتى هى مشاهدة الإعلانات التلفزيونية.

واندهشت عندما وجدت أن موظفة الاستقبال أخذت الأمر مأخذاً جاداً وصارت تبحث لى عن شركاء فى هذه الهواية، أتعرف إليهم وأتبادل معهم الحديث عن خبرتنا المشتركة فى هذا المجال . واكتشفت عندئذ أن ما ظننته حديثاً عابثاً حول الإعلانات، يتحول إلى قضية ساخنة، وأن هذه الهواية، التى لم أكن أظن أن أحداً سيهتم بها بجوار الذين يحبون الأدب والموسيقى والسينما والسياحة والزهور، تحظى بشعبية كبيرة بين راكبي السفينة. لقد صارت الإعلانات المرئية جزءاً من حياتهم وتعاملهم اليومي مع الدنيا، فكان لابد أن يصير لها معجبون يتحمسون لها ويدركون أهميتها ويفاضلون بين الإعلان الجيد والإعلان الرديء ووجدت نفسى أدخل فى حديث عن الاحتكارات الدولية والشركات المتعددة الجنسية التى تسخر أعظم المهارات والكفاءات لتقديم الإعلان. ولأن الإعلان لابد أن يكون قصة قصيرة تصور فى جزء من الدقيقة موضوعاً ، وتقدم وجهة نظر ، وتسعى إلى نيل رضا المشاهد وإعجابه، فلا بد أن مجموعة من المعارف والخبرات والفنون تشترك فى تقديم هذه اللحظة التى تحتاج إلى قوة الأداء والتنفيذ. ومهما كانت البضاعة سيئة السمعة مثل السجائر فلا بد أن تقدم إلى المشاهد باعتبارها شيئاً مبهجاً وجميلاً ومفيداً ولا بد أن تخترق كل قناعاته وأفكاره لتكسبه إلى صفها. ورأيتهم يضربون أمثلة بإعلانات صارت لها الآن قيمة فنية وجمالية وتاريخية تتجاوز قيمتها الإعلانية. ولأننى كنت جاهلاً بهذا العالم وأسراره فقد عدت من تلك الرحلة أكثر انتباهاً إلى أهمية الإعلان فى حياتنا، وأكثر قدرة على الاستمتاع بالجوانب الفنية لهذه الإعلانات مهما كانت تتناقض مع قناعاتى وأفكارى عن البضاعة التى تعرضها. إن هناك جانباً جمالياً لالعلاقة له بالقيم والمفاهيم والقناعات. وسمعت رأياً أعجبني للكاتب غورفيدال، يعزو فيه شعبية

الرئيس السابق للولايات المتحدة الأمريكية ، رونالد ريجان ، لإعلانات التلفزيون، فكل شيء فيه يذكر المواطن الأمريكي بهذه الإعلانات ابتداء من صوته وطريقته في الحديث. وهو مثل الإعلان التلفزيوني يغطي خواءه وسطحيته بالأسلوب والأداء والتلوين العاطفي في نبرات الصوت. ولأن الأمريكيين يحبون الإعلانات المرئية ويعيشون معها ليلاً ونهاراً فقد انتخبوا ريجان وأحبوه لهذا السبب.

إن عالم الإعلان التلفزيوني (ولتترك جانباً الصحافة والاذاعة) صار ظاهرة تدل على العصر وترمز إليه أكثر من أى ظاهرة أخرى. والنظر إليه باعتباره رمزاً لعيوب المجتمع الاستهلاكي وأداة من أدوات التضليل وتغيب إرادة المتفرج، ليس تحليلاً كافياً أو منصفاً لهذا الإعلان، إنه أيضاً إعلام وإخبار. وهو أيضاً فن وتقنية ومهارة وخبرة، وهو يأتي ليؤدي وظيفة يبدو أنها صارت ضرورية في مجتمعات العلم والصناعة والاستهلاك. إنه يقدم للمشاهد إحساساً بالأمان في عالم مملوء بأخبار الكوارث والمآسى والصراعات، إحساساً بأن كل شيء متوفر وموجود وفي متناول اليد، حتى لو كان وهماً فإن المشاهد يحتاج إلى هذه الجرعة من الطمأنينة والأمان.

ولأن كل شيء في الإعلان المرئي جميل وبهيج ورائع إلى حد الكمال؛ فإن المشاهد عندما يرى حصة إعلانية بين فقرات الكوارث التي تقدمها نشرات الأخبار يشعر بشيء من الارتياح والامتنان لأن العالم ليس سيئاً وقيحاً إلى الحد الذي توحى به الأخبار.

إن لهذه الإعلانات مفعول المهدئات التي نعالج بها الهزات النفسية والعصبية التي تصيبنا بها وتيرة الحياة في هذا العصر. وإذا كان لهذه المهدئات بعض الأضرار الجانبية فمتى رأينا علاجاً يخلو من هذه الأضرار؟

هناك إنجاز عربي عجيب يتصل بتأثير الإرسال التليفزيونى وفعاليتته لأعتقد أن الدارسين لوسائل الاتصال بالجماهير قد انتبهوا إليه لأنهم لو فعلوا ذلك، لعرف العالم أن انقلاباً فى فهم هذه الوسيلة وإدراكها تحقق على أيدينا. لقد استخدمنا هذا الجهاز استخداماً يعطل فاعليته تمام التعطيل، بل إننا وصلنا إلى نتيجة مذهلة لا أعتقد أن أحداً قد سبقنا إليها وهى الحصول على تأثير عكسى لكل ما نوى تحقيقه من هذا الجهاز.

فنحن جميعاً نعرف أن أصحاب الشركات المنتجة والمصنعة لمختلف السلع والبضائع والمواد الاستهلاكية، يدفعون كل عام ما قيمته بلايين الدولارات مقابل نشر إعلانات تحبب المشاهدين فى بضائعهم وتدفعهم لشرائها، وكلما تكرر الإعلان عنها ازداد إقبال الناس عليها، ويصرف المرشحون للمناصب الرئيسية فى الغرب الأموال الطائلة من أجل شراء حصص فى برامج التلفاز يظهر فيها على الناس لتزيد من شعبيتهم وتولى تشجيع الناس على انتخابهم، وكلما استطاع مرشح من المرشحين الفوز بحصص أكثر كانت حظوظه فى النجاح أكثر من منافسيه، ولهذا فإنه لأول مرة فى تاريخ تعامل الناس مع هذا الجهاز الخطير يتحقق العكس، أى أن المشاهدين يزدادون نفوراً وكراهية مما تعرضه عليهم الشاشات الصغيرة فى عالمنا العربى، وإذا كانت الوجوه التى يتكرر ظهورها فى هذا الجهاز هى الأكثر شعبية فى العالم فإن الوجوه التى يتكرر ظهورها لدينا غالباً ما تصبح موضع سخط المشاهدين ونقمتهم.

وسأضرب أمثلة من هذا التاريخ الذى بين أيدينا. لقد اشتهر الرؤساء السابقون الثلاثة أنور السادات، والحبيب بورقيبة، وجعفر النميرى، بأنهم من أكثر رؤساء الدول ظهوراً على شاشة التلفاز، وفى حين كان النميرى يتولى بنفسه تقديم البرامج التليفزيونية التى يرد فيها على رسائل المشاهدين

فإن السادات اقترن اسمه وعهده وسمعته الدولية بهذا الجهاز الذى كان يتبعه ويقتفى أثره أينما ذهب إلى أن لقى نهايته المأساوية أمام كاميراته، وأما بورقييه فقد جعل التلفاز التونسى أشبه بمحطة خاصة تنقل أخباره وأقواله وحصص المدائح والأغاني التى تقال تمجيداً لشخصه، ومع ذلك فإن هؤلاء الرؤساء الثلاثة، وبغض النظر عما حدث ضدهم من انتفاضات، يتشاركون فى أن شعبيتهم قد وصلت مع نهاية عهودهم إلى أدنى مستوياتها، وبدا واضحاً أنه كلما ازداد ظهورهم فوق شاشة التلفاز ازداد نفور الشعب منهم وسخطه عليهم. وعندما انتهوا انتهت معهم ملايين الكيلو مترات من الأشرطة المرئية التى أخذت لهم والتى ظنوا أنها سوف تضمن لهم البقاء فى الحكم يمثل ما تضمن لأعمالهم الخلود. لقد ذهبوا ضحية إيمانهم بفعالية هذا الجهاز وتصديقهم للأراء التى تقول إنه أفضل وسيلة لإرغام الناس على حبهم، وفى حين أرادوا تعزيز مكانتهم وزيادة شعبيتهم وتأكيد حضورهم فى أذهان المشاهدين عن طريق الإسراف فى الوقوف أمام كاميرات التليفزيون، إذا بهذه الكاميرات ذاتها هى التى تعمل على تنفير الناس منهم وتسهم فى التعجيل بانتهاء عهودهم.

إنها إحدى المفارقات العجيبة التى وجب الوقوف عندها والبحث عن دلالتها ومعناها لأنها أبطلت كل تلك المفاهيم والأفكار التى يتداولها الناس على مدى سطورة هذا الجهاز وجبروته، القادر على أن يجعلك تحب ما لا تريد حبه وتشتري ما لا تريد شراءه.

لقد أثبت المواطن العربى أنه أكثر سطورة وجبروتاً.



عاد المذيع ليحتل فى حياتنا دوراً مركزياً مع توتر الأحداث وتصاعد الأزمات التى يشهدها الوطن العربى. المذيع الذى أهملناه واستبدلناه

بالتحديق فى شاشات التلفاز، ومصاحبة الأشرطة المسجلة المرئية بما تقدم لنا من تسلية وترفيه. عاد الآن ليكون مرشدنا ودليلنا وسط هذا الجو اللافح، العامر بالعواصف والأعاصير وقعقة السلاح، ننتقل به من مكان إلى آخر، ونخلق حوله فى المكاتب وعلى الشواطئ وأمام الدكاكين ونضعه بجوار رؤوسنا عندما ننام، وأحياناً نستعين بأكثر من مذياع ينقل لنا أصوات المذيعين من شمال الأرض وجنوبها، وشرقها وغربها حيث تختلط الأصوات كما تختلط المشاعر والعواطف والانفعالات، تهتز نفوسنا تفاعلاً مع خبر يأتى كأنه حبل النجاة، ينتشلنا من قاع الجب، ثم يأتى خبر آخر يعيدنا إلى بئر اليأس والتشاؤم. قد نقرأ الصحيفة أول الصباح، وقد نشاهد التلفاز آخر الليل، ولكن المذياع يبقى الرفيق الملائق لنا فى أوقات الشدة، ليلاً أو نهاراً، منه نستمد معلوماتنا ونستعير من ألوانه ألوان مشاعرنا وانفعالاتنا، ونستجدد به فى كل لحظة أن يقول خبراً يفرحنا، وننتقل من محطة إلى أخرى بحثاً عن هذا الخبر المفرح الذى لا يأتى. تتشجع أصابعنا ونحن ندير الأزرار، وتهدج أصواتنا ونحن نشتم المذيع الذى يقول شيئاً يصدم مشاعرنا ولكن المذيع لا يهتم بسخطنا أو تشنجنا، إنه يقول ما يقوله حتى لو تحول إلى كوابيس تسيطر على نومنا ويقتطنا، ونحن مع ذلك لانستطيع أن نفك ارتباطنا بهذا المذياع أو نرميه جانباً عقاباً له. نلصق آذاننا به، نتسقط الأخبار ونسمع كلام المحللين وتصريحات أهل السياسة، ومنتقى بعض الأقوال التى نعيدها فى المجالس ونتحمس لها أثناء النقاش، ونواصل دورتنا مع دورة الليل والنهار، مذيعون يقولون نفس الكلام عبر جميع المحطات، يعيدون قراءة نفس الأخبار، ساعة وراء الأخرى، ونحن نلهث وراء هؤلاء المذيعين دون كلل أو ملل.

ولا أدرى إذا كانت علاقتنا بالمذيع كمواطنين عرب، تختلف عن علاقة

الآخرين به أثناء الأزمات، فنحن ما أن تلوح أمامنا بوادر الأزمة حتى نذهب إلى المذيع طلباً للمعلومات. ولعل ذلك يرجع إلى أن ثقافتنا التي تمتد جذورها في أرض المجتمع البدوي، الرعوي، ثقافة شفوية، سماعية تعتمد على الرواية ونقل الأخبار شفاهة، أكثر مما تعتمد على التوثيق والكتابة، ولذلك صار للمذيع كل هذه الخطوة في حياتنا.

وإذا كان المواطن العربي معنياً قبل الآخرين بما يحدث فوق أرضه، ويحمله همّاً يومياً يطغى على همومه الأخرى، فإن حجم الاهتمام الذي تمنحه الدوائر السياسية في العالم لهذه الأحداث يجعل منها حوادث تهتم كل إنسان يعيش فوق الأرض.

إن ما نراه من قلق يعم الكرة الأرضية بأجمعها يؤكد لنا حقيقة كبرى من حقائق السياسة المعاصرة، وهي مدى أهمية وخطورة هذه الرقعة من الأرض المسماة بالوطن العربي.

إن قيمة وحيوية هذه الأرض التي ننتمى إليها، وإدراك العالم اليوم بأنها مركز العصب ومصدر القوة وسر هذا الكوكب، يجعلنا مطالبين بأن نعيد حساباتنا ونتسببه إلى مدى قوتنا وندخل معارك الصراع والتحدى بإرادة موحدة قادرة على فرض وجودها في عالم لا يعترف إلا بالقوة القائمة على الحق والشرعية.



الكلمة المسموعة التي تذاق عبر الأثير، والكلمة المقروءة التي تنشر في صحيفة أو كتاب، ملمحان من ملامح عصر جديد بدأ باختراع المطبعة وواصل التطور عبر هذه التقنيات الحديثة التي تستخدم الأقمار الصناعية هو عصر وسائل الاتصال الجماهيري.

والكاتب في هذا العصر أسعد حظاً من أسلافه القدامى الذين كانوا

يلقون أشعارهم وأطروحاتهم الفلسفية وحكاياتهم المروية فى الأسواق، أو يتعاملون - فيما بعد - مع دكاكين الوراقين، فهو الآن يستطيع أن يرى كلمته تصل إلى عيون وآذان الملايين من الناس عبر هاتين الوسيلتين.

ورغم أننى أتمنى إلى الكلمة المكتوبة التى تطبع فى كتاب أو صحيفة، إلا أننى صاحب تجربة صغيرة فى التعامل مع الإذاعتين المسموعة والمرئية، وقد بدأ ذلك منذ أكثر من ثلاثين عاماً عندما كنت أكتب برنامجاً للإذاعة المسموعة كان يذاع صباح كل يوم باسم «مجرد رأى»، وكان مثيراً وجميلاً أن أرى ردود الفعل التى تصل من جمهور جديد لا يقرأ الصحيفة أو الكتاب هو جمهور الكلمة المسموعة، وأتعرّف على هذه الإمكانيات الهائلة التى تحملها وسائل الاتصال الحديثة التى تخاطب جمهوراً واسعاً وعريضاً وأبعد مدى من أن تصل إليه الوسائل المطبوعة. ولقد كان هذا الإغراء الذى تحمله الوسائل الحديثة كافياً لأن يجعل كتاباً كثيرين يهجرون مواقعهم القديمة فى عالم الصحيفة والكتاب وينتقلون للعمل بالإذاعتين المرئية والمسموعة. ويسعون إلى تطوير أدواتهم وإمكانياتهم بما يناسب التعامل مع هذه الوسائل السمعية والبصرية. إنه خيار صعب يواجه أى كاتب فى هذا العصر الذى يطالب بالتخصص وامتلاك المعرفة بالتقنيات التى تحتاجها كل واسطة من هذه الوسائط التى تخاطب الناس.

وصعوبة الاختيار، تأتى من أن لهاتين الوسيلتين - أى الكلمة المسموعة والمكتوبة - إيجابيات وسلبيات .

فجهاز الإذاعة، مرئياً أو مسموعاً - برغم اتساع الدائرة التى يتعامل معها من مستمعين ومشاهدين - فإن ما يقوله يتناثر عبر موجات الضوء والهواء، ويذوب لحظة إذاعته فى هذا الفضاء الذى يغلف الكون. بينما تحتفظ الكلمة المطبوعة برغم الدائرة الصغيرة لقراءتها، بقدرتها على البقاء لتكون

فى متناول القارئ أحقاباً بعد زمن كتابتها.

ولعل الصيغة السعيدة الوحيدة هى تلك التى اهتدى إليها بعض الكتاب والمبدعين المتعاملين مع الكلمة المطبوعة، عندما وجدوا من الكتاب الإذاعيين من اعتنى بتطويع إنتاجهم ليناسب وسائل البث المرئى والمسموع، فثقلوا ما كتبوه من أشعار وقصص وذكريات ومذكرات وتراجم إلى مادة إعلامية سمعية وبصرية يكون مردودها متعة وفائدة لأوسع قاعدة من المستمعين والمشاهدين والقراء. ويتحقق ذلك اللقاء المخصب الجميل بين الكلمة المكتوبة والكلمة المسموعة.

تسع يوماً وراء الآخر المسافة التى تمنحها الصحف لمشاركات القراء. ويقدر ما تزداد هذه المشاركات عمقاً وجدية بقدر ما يزداد حجم المسؤولية الملقاة على الصحيفة، فهى لا بد أن تسعى للارتفاع بمستوى أدائها وخدماتها وأسلوب تناولها للأحداث ومعالجتها للقضايا لأنها تدرك أن وراءها قارئاً حازماً يتابع ويحاسب ويتدخل لإبداء الرأى والملاحظة وليس مجرد قارئ يتلقى ما يقدم له دون اعتناء أو رأى أو نقاش. لقد أصبح القارئ شريكاً فى العملية الإنتاجية لوسيلة الإعلام ومن هنا وجب عليه هو الآخر أن يرتفع إلى مستوى هذه المشاركة وما تترتب عليها من مسؤوليات. إن انقلاباً خطيراً يحدث الآن على مستوى الصحافة العربية، تقنية وطباعة وتوزيعاً، فلأول مرة منذ اختراع الصحافة يتحقق ذلك الإنجاز الذى يجعل القارئ العربى فى مشارق الأرض ومغاربها داخل الوطن العربى وخارجه يقرأ الصحيفة ذاتها وفى اليوم نفسه الذى صدرت فيه. لقد كان هذا يحدث وبشكل ضيق على مستوى الكتب والمطبوعات الدورية، أما أن يحدث ذلك بالنسبة لصحيفة يومية تتعامل مع الأحداث الساخنة والوقائع الجديدة وعلى هذا المستوى من

الاتساع وبهذا القدر من الانتشار والديمومة والاستمرار فهذا ما لم يتحقق إلا منذ فترة وجيزة مضت، أى مع استخدام الأقمار الصناعية فى نقل الصحف العربية وطباعتها مما يجعلنا نشهد إنجازاً علمياً وصحفياً قادراً على أن يحدث أعظم التحولات فى أساليب التعامل مع الرأى العام العربى، إن ظهور منابر صحيفة قومية تتجاوز الطرح القطرى والإقليمى وتتجه إلى القارى العربى أينما كان، سيكون فرصة عظيمة لخلق رأى موحد حول الكثير من القضايا التى تهتم المواطن العربى، إذ مهما كانت القضايا ذات طابع عاجل وملح فإن بإمكان صحافة يومية توفرت لها إمكانات التوزيع والوصول إلى القارى على امتداد الوطن العربى بعد لحظات قصيرة من صدورها، بإمكان صحافة من هذا النوع أن تعمل على استنفار الرأى العام العربى وتعبئته وتحريكه من أجل الوصول إلى مواقف حاسمة ومحددة حول تلك القضايا. ومن هنا تأتى مهمة القارى فى هذه المرحلة الصحفية الجديدة، إنها مرحلة أكثر خطورة وجدية من أى مرحلة مرت بها الصحافة العربية فى تاريخها الذى يمتد لأكثر من مائة وخمسين عاماً، وهى تريد قارئاً يتكافأ مع هذه الخطورة والجدية، إننا بمثل ما نطالب الصحيفة بأن تتجاوز الطرح القطرى والتناول الإقليمى للمشاكل والقضايا وتبتعد عن وجهة النظر الأحادية أو المحكومة بمنظور محلى، فإننا نطالب القارى أيضاً بأن يرتفع إلى مستوى التحديات التى تفرضها هذه المرحلة، نريده أن يكون شريكاً فى المسيرة الجديدة يرى ويراقب ويحاسب ويعاتب، يكشف أى انحراف عن الاتجاه الصحيح، ويقدم دعمه وتأييده لما يراه صادقاً وأميناً، نريده أن يكون صمام أمان، وعامل إثراء وإغناء لصحافته العربية، يدفع بها دائماً نحو المزيد من الإبداع والتجديد والابتكار.

يحتمى قارئ التعليق الإذاعي بالهواء. فهو يأتي راكباً موجات الأثير، لانرى له وجهاً ولا نمسك عليه دليلاً ولا نستطيع أن نصل إليه بردودنا أو تعليقاتنا أو احتجاجاتنا. لو كان حاضراً بيننا لقتلنا برأينا في وجهه، ولطالته صيحات الاحتجاج والاعتراض على كلامه، وقد يصل الغيظ ببعضنا إلى رميه بالبيض أو الطماطم أو الكراسي، ولكنه احتمى ببعده عنا وجلس يطلق كلماته التي تسافر آلاف الأميال لتصل إلى آذاننا. كلمات تأتي من الهواء وتذوب في الهواء، لأنه لا يقول كلاماً مكتوباً يراجعه الناس فيما بعد ويأخذونه بالحجة والبرهان على ماقاله، ولذلك فهو يقول ما يقوله دون أن يجد من يعارضه أو يناقشه، نستمع إليه صابرين. نرمي بشيئة لاتصل إليه، وننقل المذيع أو نبقية مفتوحاً فقد وصل بكلامه إلينا، وأورثنا قلقاً أو ضيقاً، دون أن نستطيع عمل شيء حياله، اشتغل بقلب الحقائق، وتزييف التاريخ وابتاع واشترى في قضاياها ومصائرنا وسخر من فهمنا وعقولنا، دون أن يلقي تبكيتاً أو تأنيباً، أو يخشى محاسبة أو مراجعة، فهو لا يكتب كتاباً أو يحرر صحيفة نستطيع أن نعود إليها متى شئنا ونرفعها كدليل ضده عندما يأتي وقت الحساب والعقاب. ولذلك فقد فرض الحديث عبر الهواء أسلوباً جديداً في الخطاب لم يكن موجوداً قبل ظهور هذه الاختراعات الحديثة، وأنشأ مدرسة جديدة، هي مدرسة الأشباح التي تنهال عليك بكلام كالحجارة، أو تنهمر عليك باللكمات والضربات دون أن تراها أو تستطيع لها دفعاً أو تملك لضربها رداً، وإذا كان الرجل الذي يأتي بحضوره الشخصي للكلام في ندوة أو مهرجان خطابي يراعى مشاعر الجمهور ويحترس في حديثه كى لايقول شيئاً يستفزهم أو يغضبهم وإذا أراد أن يقول شيئاً مجافياً للحقيقة تحايل على تمريره بأساليب لاتصدم مستمعيه ولا تستهين بذكائهم.

وإذا كان التعامل بالكلمة المكتوبة يعرف أن كلامه سيكون وثيقة تبقى شاهداً عليه في حياته وبعد مماته، ويستطيع كل إنسان أن يعود إليها متى شاء ويواجهه بها إذا احتوت تحريفاً أو تشويهاً، فإن قارئ التعليق الإذاعي يعرف إنه بمنجاة من كل ذلك، ولهذا فهو يجلس مطمئناً خلف ناقل الصوت، وداخل غرفة البث التي تغلفها العوازل وتحيط بها الحراسات ويرسل حديثاً عبر الهواء يقول خلاله ما شاء دون أن يخشى محاسبة أو مراجعة، وإذا كانت طاقة الإخفاء أسطورة استفاد منها أصحاب القصص والأشرطة الخيالية فإنها تحولت مع قارئ التعليق الإذاعي إلى حقيقة من حقائق الواقع الذي نعيشه كل يوم، فهو يرتدى طاقة الإخفاء، ويمارس ما شاء من عبث بنا واستهتار بمشاعرنا وليس غريباً بعد ذلك أن يصبح هذا العصر الذي هو عصر إنجازات العلم وتدفق المعلومات وإلغاء المسافات هو أيضاً عصر الأكاذيب الكبيرة وعصر برمجة العقول البشرية في قوالب مثل قوالب الأحذية، وإذا قال مذياع في الصين أن مسرحية «هاملت» خطر علينا، تنادى ألف مليون مواطن يطالبون بشنق كاتبها الذي مات منذ أربعمئة عام.

إن هذا الصوت الشبهي الذي يركب الهواء ويزيف التاريخ ويقلب الحقائق يعتمد في ترويضك على عامل واحد هو الزمن، فهو يعرف أنك تغضب وتشور مما يقوله من أكاذيب، ستفعل ذلك في اليوم الأول والثاني والثالث وقد تقفل المذياع وتذهب ساخطاً إلى المطبخ فتحرق أصابعك وأنت تحاول إعداد كأس من الشاي يعيد إلى أعصابك المتوترة هدوءها، وما أن تمضي بضعة أيام حتى تسأم من لعبة حرق الأعصاب والأصابع وترك المذياع مفتوحاً وتحاول إهماله ونسيانه وعدم المبالاة بما يقوله من هراء ثم تدريجياً ومع مضي الأيام تكون أكاذيبه قد تسربت إلى وعيك ولا وعيك

وأسهمت فى تكوين قناعاتك دون أن تدري. إلى أن نكتشف أنك صرت تردد بعض ما سمعته وتنسبه إلى نفسك، كما صرت تسمع بعض ماقاله المذيع يتردد على ألسنة أصدقائك، وشيئاً فشيئاً يكون الصوت الشبهي الذى جاء يركب الهواء، ويلتحف بالسحب والظلام قد احتواك إلى الأبد.

برغم أن وسائل الإعلام الجماهيرى من إذاعات مسموعة ومرئية صارت تحتل واجهة الإعلام الحكومى فى الوطن العربى إلا أن الصحف التى تصدرها وزارات الإعلام التى تتكلم باسم الحكومة مازالت تحظى بأهمية كبيرة كمصدر معلومات ووسيلة تواصل بين الحاكم والمواطن، ومن هنا وجب التعامل معها باعتبارها إحدى حقائق الواقع الإعلامى الذى لا بد من فهمه إذا أردنا تحسينه وتطويره.

والمعادلة التى تفشل أغلب هذه الصحف فى حلها هى تلك التى تتعلق بتحقيق التوازن بين إرضاء الحاكم وإرضاء المواطن. ومن يوالى قراءة هذه الصحف لا بد أن يصل إلى نتيجة مفادها أن ما يمكن أن يرضى الحاكم لا بد أن يثير استياء المواطن وما يمكن أن يرضى المواطن لن ينال رضا الحاكم. وهى بالتأكيد نتيجة خاطئة أدت إليها مجموعة من الفرضيات الخاطئة التى تجعلها الصحف الحكومية قاعدة لانطلاقها. إذ لاشك أن هناك منطقة ما يمكن أن يلتقى عندها أبناء الوطن الواحد حكاماً ومحكومين، ولكن الصحافة الحكومية لا تجتهد فى البحث عن هذه المناطق التى يمكن أن تنقذها من أزمتها الدائمة.

إنها من موقع وظيفى روتينى يمنع ولاءه المطلق للحاكم، تسرف الصحيفة الحكومية فى كيل الشكر والثناء للحاكم طوال الوقت ودون أن تجهد نفسها فى البحث بصدق ومشاركة عما يستحق الثناء، وكثيراً ما نراها

تصفق وتهلل لصدور قانون تعسفى أو تعطيل لإحدى مواد الدستور أو خرق لنصوصه وتحدث عنه وكأنه إنجاز حضارى وعمل جليل لصالح الشعب بدل أن تكفى بتقديمه تقدماً يتفق ومهمتها الإعلامية واعتبار هذا القانون التعسفى أو الخرق الدستورى إجراء طارئاً يجب أن ينتهى بانتهاء أسبابه.

إنها فى الوقت الذى تتخذ فيه هذا الموقف المفرط فى تأييده للحكومة إلى حد الكذب والافتراء أحياناً، تنسى كل شىء عن احتياجات المواطن وهمومه وقضاياها فتعامله باستفزاز ودون احترام لعقله أو مراعاة لمشاعره. وبطبيعة الحال فإن أحداً لا يطالب الصحيفة الحكومية أن تكون أكثر مما هى مؤهلة له.. لا يطالبها أن تكون شيئاً آخر غير صوت الحكومة، المعبرة عن سياستها، المؤيدة لها فى قراراتها، المتفانية فى الدفاع عن مواقفها، لا يطالبها أن تتكلم بلغة المعارضين أو أن تتحول إلى منبر من منابر حرية الرأى والتعبير ولكن ما نطالبها به هو حد أدنى من الصدق والموضوعية والأمانة الصحفية فى نقل الأخبار. ويرغم أن هذه الصحف غالباً ماتسمى نفسها الصحف القومية تمييزاً لها عن الصحف التى لاتصدرها الحكومة، وغالباً ما تضع شعاراً تحت عنوانها تقول فيها «إنها الناطقة باسم الشعب» فالقراء يعرفون أن هذه التسميات والشعارات واللافتات مجرد كلمات خالية من أى محتوى أو دلالة ولذلك فإن أحداً لا يطالبها بأن تطبق الشعارات التى ترفعها. إننا نقول إنه مهما كانت المساحة شاسعة بين بعض الحكام والمحكومين فإن هناك هامشاً للحركة فيما يخص التعبير عن احتياجات المواطنين ومطالبهم وشكواهم وإنها باجتهاد بسيط يمكن أن تحقق رضا المواطن بالإضافة إلى رضا الحاكم وتمد جسور الثقة والتفاهم مع القراء وتحفظ لنفسها بحد من المصادقية يؤهلها لأداء رسالتها فى تحقيق

التواصل بين المواطنين والحكام.. ولعل بعض الصحف الحكومية قد أفلحت فى أداء هذه المهمة، فلكل قاعدة - كما يعلم القراء - استثناء.

كان احتمالاً مرعباً ذلك الذى تصور صديقنا الشاعر والكاتب خالد محادين حدوثه، وهو أن يأخذ المصححون فى الصحيفة إجازة لمدة أسبوع كاختبار نعرف من خلاله مدى إتقان كتابنا، كباراً وصغاراً، للغتهم العربية. أقول ذلك لأننى على يقين بأن أغلب كتاب الصحيفة بمن فيهم خالد محادين سوف يمتنعون عن الكتابة ذلك الأسبوع. وأعترف هنا أننى شخصياً لا أتصور أن يذهب المقال الذى أكتبه إلى المطابع دون مراجعة من لغوى متخصص. وبرغم أننى أحاول دائماً مراجعة معلوماتى اللغوية، والاستيلاء على كتب المقرر اللغوى التى يقرأها أطفالى لاستذكار ماسقط من ثقوب الذاكرة، وتدارك ما كنت ارتكبه من أخطاء، وكتابة نص نظيف منها، إلا أننى لا أستطيع أن أنام هانئ البال إلا إذا وجدت معلم لغة يعتمد النص الذى كتبت، وأعتقد أن هذا هو حال عدد كبير من الكُتَّاب ممن فاتهم الالتحاق بكليات اللغة العربية. ولم أستغرب عندما ذهب المهتمون إلى بيت نجيب محفوظ يوم فوزه بالجائزة فوجدوا أن الكتاب الذى كان يقرؤه كتاب فى قواعد اللغة العربية. والذى يتابع البحوث التى ينشرها الدكتور على شلش لمؤسسى النهضة الفكرية الحديثة فى الوطن العربى سوف يندهش لما يعثر عليه الباحث من أخطاء نحوية لكُتَّاب عمالقة فى حجم العقاد وغيره. وكان معروفاً عن طه حسين أنه يأتى بمن يراجع معه معلوماته اللغوية ويقرأ له كتب النحو. وكل من اشتغل فى مطابخ الصحافة الأدبية يدرك مدى ما يقع فيه الكاتبون من أخطاء مهما كانت تخصصاتهم قريبة من الميدان اللغوى.

وأنا لا أعرف لغات أخرى، سوى اللغة الإنجليزية، يمكننى أن أقارن بينها وبين اللغة العربية فى مجال النحو وقواعد اللغة، وقد كتبت بهذه اللغة بعض المقالات وألقيت بعض المحاضرات وأنجزت أطروحة فى مجال الأدب، ولم يكن «النحو» مسألة تقلقنى أو تشغلنى كما يحدث عندما أكتب باللغة الأم، فالنحو فى اللغة الإنجليزية، وأنا أتحدث هنا عن الاستعمال العام لا عن القضايا التخصصية، سهل وميسور لكل من نال حظاً من التعليم المبذون، وبإمكان أى صبى أكمل دراسته الابتدائية أن يكتب نصاً خالياً من الأخطاء النحوية. ولا أحد يجادل فى أن اللغة العربية هى من أكثر لغات العالم غنى وثراء، وهى لغة سايرت التطور واستوعبت التحولات الفكرية والعلمية التى رافقت مختلف المراحل التاريخية، ولكن قواعد نحوها وصرفها تحتاج إلى جهد علمى كبير من أجل تبسيطها وتيسيرها، خدمة لهذه اللغة ولأهلها فى عصر لم يعد يتيح ترف أن يكون الإنسان عالماً لغوياً قبل أن يدرس العلوم الأخرى، وإذا كان أسلافنا من مثقفين وعلماء أكثر إتقاناً للغة من هذه الأجيال، فما ذلك إلا لأنهم كانوا يصرفون جزءاً من أعمارهم فى دراسة اللغة وأسرارها فقد كانت ثقافة عصرهم، ثقافة فقه، وبيان، وكلام. ثقافة فى أغلبها دينية وأدبية، أما اليوم وبعد ما حدث فى العالم من ثورة معرفية نقلت الثقافة والعلوم والمعارف إلى هذه المجالات التخصصية باتساعها وتنوعها فإن كل هذه القضايا صارت تحتاج إلى معالجة جديدة، وإلى لغة جديدة فى الخطاب تختلف عن لغة «رمونى بعقم فى الشباب وليتى..» التى كان يتكلم بها أسلافنا الأجلاء.

كثيراً ما نقرأ كتابات فى الصحف تعبر عن سخط وتذمر أصحابها من

هذه الأهمية الكبيرة التي يوليها الرأي العام ووسائل النشر والاتصال بحادث سير تعرضت له إحدى الفنانات، أو بأحاديث وتصريحات لاعب كرة أعلن اعتزاله.

ويرى أصحاب هذه الكتابات في الاهتمام بالقضايا الصغيرة والهامشية تلهية للجماهير وانصرافاً عن معالجة القضايا الأساسية في الحياة وهروباً من مواجهة المشاكل الحقيقية للمجتمع واستغراقاً في مواضيع تافهة لا تخدم الحياة العامة ولا تقدم مردوداً نافعاً يسهم في تحسين الأحوال المعيشية، ويعتبرون أن هذه الضجة - التي تجعل من حادث مثل هذا حديث الناس وموضع تفكيرهم واهتمامهم - تركيز غير برىء على الجانب العابث في الحياة وتغليبه على الجوانب الأخرى، خاصة عندما يحدث هذا في بلاد الكشافة السكانية من أقطارنا العربية بكل ما يواجه الوطن من مشاكل اقتصادية مستفحلة تحتاج إلى اليقظة والتوعية واستنفار عقل الأمة لكى تواجه به التحديات الخطيرة، ويرغم أنني أفهم غيرة هؤلاء الكتاب وأشاركهم الحرص على أن تبقى مشاكل الوطن الكبرى في بؤرة التفكير والاهتمام، إلا أنني لا أشاركهم الرأي في أن ذلك يأتي خدمة لمخطط يسعى لعزل الناس وتنفيه القضايا الكبيرة وتهميشها، بل على النقيض من ذلك فأنا أرى أن الاهتمام بالللاعب الذى وصل إلى آخر الشوط أو الفنانة التي تعرضت لحادث السير إنما هو دليل صحة وعافية، وهو اهتمام لا يبدر إلا عن نفسية سوية ومزاج لم تفسده نشرات الأخبار السياسية، وسأكون أكثر قلقاً على العافية النفسية للمجتمع لو أن حياتنا خلت من كل هذه القضايا التي ينشغل بها الرأي العام، إذ معنى هذا الانشغال أن المواطن في بلادنا مازال لم يجعل من حياته ارتهاناً كاملاً للمشاكل المعيشية، ومازال قادراً على الاحتفاظ بهامش من حياته وجزء من روحه وقطعة من قلبه لم تمغنها

وتسحقها طواحين المشاكل المعيشية والكوارث السياسية، لأن حجة هؤلاء المتقدين أن هناك في أوطاننا من المشاكل والهموم ما يغنيننا عن ترف هذا الحديث، بعد أن ارتفع ثمن الرغيف، واستفحلت أزمة الإسكان وتضاعف حجم الديون وضاعت القيمة الشرائية للجنيه، فإلى مثل هذه القضايا يجب أن ينصرف الاهتمام. والمغالطة في هذا المنطق أنه لا يرى المواطن إلا نبتة لاتتغذى ولا تعيش إلا على الكوارث والهموم والأزمات والمشاكل، وينسى أن الإنسان مهما كان مأزوماً ومسحوقاً ومطحوناً لا بد أن يحقق إنسانيته بالارتفاع فوق هذا الانسحاق والتأزم فيتابع أخبار النجوم ويحضر المباريات الرياضية ويشاهد البرامج الاستعراضية فى التلفزيون ويقرأ القصص ويذهب إلى الشواطئ فالحياة ليست مجرد وجه قاتم لا إشراق فيه، والحديث عن الفنانين ولاعبى الكرة ليس بالضرورة تعطيلاً للتفكير فى قضايا العملة والديون وتحديد النسل وتنظيم الأسرة، فالورق مازال لم ينفذ من الدنيا بعد، والصحف التى تصدر فى الوطن العربى تملك براحاً يتسع لنشر كل الآراء والأفكار ومعالجة كل القضايا وإرضاء كل الاهتمامات. وأصارحكم الحقيقة بأننى إذا ما وجدت فى صحيفة الصباح تحقيقاً عن تلوث المياه التى نشربها فى بيوتنا واستجاباً صحفياً مع الفنانة شريهان فإننى سأذهب مسرعاً وسعيداً لقراءة ما تقوله الفنانة شريهان متأملاً صورتها متلهفاً لمعرفة مشاريعها الفنية بعد أن استعادت صحتها، مؤجلاً النظر فى الموضوع الثانى لكى لا يفسد مزاجى ويعكر صفو أفكارى مع بداية النهار.

برغم أننى أحمل صفة «صحفى» فى جواز سفرى إلا أننى عشت مجاوراً للصحافة ولست واحداً من أهلها. والصحافة مهنة تطبع الإنسان

بطابعها وتلون حياته وسلوكه بألوانها وتربطه كعرائس الأساطير بشعرها فلا يستطيع أن يترك هذه المهنة أو يتواءم مع أى مهنة أخرى حتى لو بقى جائعاً وعاطلاً ومشرداً.

ورغم ما طرأ على التقنيات الصحفية من تقدم مهول فإن هذا التقدم لم ينقص من الأعباء التى يتحملها الصحفى، وإنما أضاف إليها أعباء أخرى، فهو مطالب فى هذا العالم الذى يدور مع دورة الأعمار الصناعية أن يمضى راكباً لاهتاً ويعمل بوتيرة تتفق مع سرعة هذه الدورة. ويعكس المهنة الأخرى التى يمكن أن تتعامل معها دون أن تعتدى على الجانب الشخصى من حياتك وتأخذ منك ساعات العمل التى تريدها ثم تترك لك هامشاً لاختيار مواعيد نومك وصحوك وساعات ترفيهك وراحتك، فإن مهنة الصحافة لاتعرف هذا كله، إنها تتدخل فى حياتك فتصيفها لك بما يناسبها ويتفق معها، فأنت لامجال لك لاختيار ساعات نومك ويقظتك أو مواعيد الغذاء أو العشاء أو أوقات الترفيه والراحة وأيام العطلة والإجازة، ولا أدرى إذا ما كانت الصحافة تحدث تغييراً فيزيولوجياً لدى الناس الذين يختارونها مهنة لهم، فتضيف شيئاً مميزاً إلى سحناتهم يجعلنا ندرك عندما نراهم أنهم أبناء هذه المهنة، فهو مجرد إحساس أحس به وأنا أعاش أصدقائى الصحفيين دون أن أملك أى دليل على إثباته، كما لا أستطيع تحديد طبيعة هذا التغيير أو أعرف على وجه اليقين المدة التى يجب أن يقضيها الشخص عاملاً بالصحافة حتى يظهر على وجهه هذا التغيير، وإذا اختلفنا حول هذه التأثيرات العضوية فلن نختلف حول التأثيرات النفسية التى تلحق العاملين بالصحافة وتجعلهم يختلفون عن بقية البشر. ولعلك التقيت بمثل هذا الصحفى الذى يتحدث عن اللحظات السعيدة فى حياته فاستبشرت خيراً بهذا الحديث واستمعت باهتمام إلى كلماته ظناً منك أن

لحظات السعادة تعنى لديه ما تعنيه لديك، إلى أن اكتشفت أن لهؤلاء الصحفيين قاموساً يختلف عن القاموس الذى ستعلمه فى تعاملنا وأن السعادة بالنسبة لهم تختلف عن سعادتنا، فهو يتحدث بغبطة وفرح عن ضربات الحظ التى صادفته عندما سافر إلى الهند، والسماء التى فتحت له أبوابها لأنه ما أن أمضى يوماً واحداً فى الهند حتى نكسب أهل تلك البلاد باغتيال زعيمهم أنديرا غاندى، فكان هو جاهزاً لتغطية الحدث وتحقيق سبق صحفى ويحدثك بحماس عن مناسبة أخرى ابتسم له فيها الحظ وأشرفت فى سماءه أنجم السعد والنجاح لأنه ما أن وصل إلى أسبانيا حتى وقعت أكبر كارثة طيران فى الدنيا عندما ضربت طائرة جامبو طائرة أخرى مثلها فكان هو جاهزاً لإحصاء عدد الضحايا.

وكدليل على ذلك انظر إلى أسلوب تعامل الصحفيين فى الغرب مع السياسيين وكيف يصنعون مجد أحد السياسيين عندما يتشرون له الصور وينسبون إليه الحكم والفكاهات ويقومون بتسويقه إلى رأى العام المتعطش إلى الوجوه الجديدة، ثم يبدأون بعد ذلك فى تحطيمه ونشر الفضائح عنه تمسياً مع قوانين الإثارة والتشويق. وبحثاً عن مزيد من الإثارة يذهبون للتفتيش عن الفندق الرخيص الذى قضى به نهاية الأسبوع. ولعل سبب هذا التغيير الفيزيولوجى الذى يصيب أنوفهم فتبدو مستديرة حمراء جاء نتيجة وقوفهم الطويل فى ليالى البرد والشتاء أمام الفنادق الساحلية التى يزورها السياسيون فى نهاية الأسبوع رفقة نساء لا يشبهن زوجاتهم

منذ أعوام كثيرة مضت شاهدت أثناء زيارة إلى تركيا تقليداً صحفياً أعجبني فعدت أدعو إلى تحقيق شئٍ مثله على مستوى اتحاد الصحفيين العرب، ولأن دعوتى تلك لم تجد صدقاً فى ذلك الوقت، ولأن الفكرة

ما زالت لم تفقد بتقادم الأيام وجاقتها، فقد أردت اليوم ومن فوق هذا المنبر الأكثر انتشاراً أن أعود إلى طرح الموضوع مرة أخرى.

وخلاصة ما رأيت في تلك الزيارة هو أن الصحف اليومية الصادرة في تركيا، وقد كانت كثيرة في تلك الأيام، تتوقف جميعها عن الصدور في عيد الأضحى ليتولى اتحاد الصحفيين إصدار صحيفة واحدة بدلاً منها اسمها «بيرام» (أى العيد) تحتوى على أهم الملامح والأبواب التي تتميز بها تلك الصحف التي تعطلت بمناسبة عيد الأضحى، صحيفة يلتقى على صفحاتها أشهر كتاب الصحف التركية وتقدم خلاصة مركزة لأهم وأشهر المواد الصحفية التي تعود أن يلتقى بها القراء في الصحف الأخرى.

إنهم يجعلون من العيد فرصة للتعبير عن موقف موحد، يرمزون به إلى وحدة الوطن، ولذلك فإن الكتاب من صحف اليمين واليسار، المحافظين والاشتراكيين ينسون خلافاتهم ويلتقون فوق منبر صحفى واحد هو صحيفة «بيرام».

لأدرى إن كان هذا التقليد الجميل لا زال مستمراً، فقد عصفت بتركيا خلال الأعوام الماضية أعاصير وعواصف وأحوال أطاحت بأكثر التقاليد عراقية وجمالاً، ولكننى أتمنى أن أرى عملاً كهذا يتحقق على مستوى صحافتنا العربية وأن يرى القارئ العربى فى عيد الأضحى القادم صحيفة اسمها العيد تصدر خلال أيامه الأربعة يشارك فى تحريرها كبار الصحفيين العرب وتحتوى على أهم الأبواب والزوايا الثابتة التى يتابعها القراء فى صحف مثل: الشرق الأوسط، والأهرام، والسفير، والنهار، والوطن، والقبس، والاتحاد، والبيان، والمدينة، والعلم، والعمل، وتشرين، والثورة، والجمهورية، والفجر الجديد. وأن يخصص ريعها لإنشاء صندوق لإعالة أسر الشهداء الذين سقطوا على طريق الكلمة بدءاً من النقيب «رياض طه»

إلى عميد الرسامين الصحفيين «ناجى العلى».

ستحقق صحيفة «العيد» رقماً قياسياً فى التوزيع وستكون عملاً جليلاً يعبر به الكتاب والصحفيون عن حقيقة الوحدة التى تربط بين أبناء هذا الوطن برغم العس وحراس الحدود.

هذا المرشح الرئاسى الأمريكى الذى خسر السباق.. ما الذى سيحدث له الآن؟

فجأة تنطفى من حوله الأضواء الساطعة، وتطوى السراقات الكبيرة، وتبخر الحشود الهائلة من البشر الذين يهتفون باسمه ويرسلون إليه صيحات الثناء والإعجاب والتأييد، وتختفى من أمام بيته آلات التصوير التى كانت تتابعه ليل نهار وتنقله من مكانه وتضعه فى قلب العالم لتحول الكرة الأرضية إلى كرة من البلور الشفاف لانرى فيها إلا وجهه ووجه منافسه، حتى أصبح اسمه صنواً لأسماء أفراد العائلة فى كل بيت من بيوتنا، واحتل لأشهر شاشات التلفاز فى ديار نومنا وجلوسنا وأقام بها لا يغادرها طوال ساعات الإرسال، واحتل واجهات الصحف والمجلات التى نقرأها بأية لغة من اللغات حتى حفظنا كل شىء عن حياته وصارت زوجته وأولاده وأصحابه جزءاً من حياتنا، نصبح ونمسي على ذكر أخبارهم وميولهم وطباعهم وهواياتهم كل هذا انتهى الآن وانتهت معه تلك القوافل الصحفية التى كانت ترافق رحلاته وتنقلاته وتسقط أخباره وتسجل أحاديثه وهمساته وتستفيض فى ذكر أسلوبه فى العمل وأسلوبه فى النوم وأسلوبه فى تناول الطعام أو تناول الدواء. كل صغيرة وكبيرة فى حياته كان هناك من يتربص بها ويقوم بتسجيلها كما يقوم بتسجيل تاريخ حياته بكل تفاصيله وجزئياته مبتدئاً من جده الذى كان يعمل تاجر خرده فى اليونان.

وما أن خسر الرهان حتى زهد العالم فى معرفة أخباره أو هواياته أو قراءاته أو أخبار زوجته وأطفاله بمثل ما زهدت فى ذلك قوافل المصورين والصحفيين الذين حملوا أقلامهم وآلات تصويرهم وتسجيلاتهم وانصرفوا عنه.

لقد انتهى المهرجان الذى صنع منه وجهاً يملأ شاشة بعرض الأفق. وعليه أن يعود إلى الظل، مجهولاً، ومغموراً مرة أخرى، ويلتحق بركب من سبقوه من متنافسين على الوصول إلى البيت الأبيض ممن عاشوا تحت الأضواء بضعة أيام ثم تواروا بعد سقوطهم فى الانتخابات إلى زوايا الإهمال والنسيان. فمن يذكر الآن جولد ووتر أو جورج ماكجفرن أو ولتر مونديل الذين شغلوا العالم بمثل ما فعل هذا المرشح الأخير ثم عادوا مرة أخرى إلى الظلام.

ولا أستطيع أن أتكهن بمدى شعور إنسان يعيش أياماً فى قلب الدنيا وتحت هذه الأضواء الساطعة المبهرة، مستقطباً أنظار شعوب العالم بأكملها، ثم فجأة يجد نفسه وقد عاد إنساناً مغموراً لن تهتم حتى جريدة قروية بنقل أخباره أو تصريحاته.

كل ما أستطيع أن أغامر بقوله إن حياته لن تعود كما كانت قبل أن يجرب الحياة فى هذا الأتون من المجد والشهرة والأضواء، سوف يبدو كل شىء فى حياته باهتاً، ماسخاً، لا طعم له ولا لون ولا رائحة، كل المناسبات الصغيرة التى يفرح بها الناس ويصنعون منها أعياداً يبتهجون بها سوف تبدو بعينه بائسة وتافهة لاستحق أى فرح أو انفعال، فما أهمية أن يأتى إليه بعض جيرانه يسطحجون زوجاتهم لتهنته بعيد الميلاد ويتحملون عناء نشر تهنته له مرفقة بصورة الاحتفال فى الصحيفة المحلية، وهو الذى كان ذات يوم موضع احتفال شارك فى حضوره آلاف الملايين من البشر وكانت

صورته مثل شمس النهار تشع فوق الكرة الأرضية بكاملها.
إن ذلك المهرجان بقدر ما أعطاه لحظات مثيرة مبهرة، فقد أفسد قدرته
على الاستمتاع بمباهج الحياة الصغيرة، وسيظل يقارن متعة أى شىء يلاقه
فى الحياة بتلك المتعة التى نالها فى ذلك المهرجان الاستثنائى الذى لن
يحظى بشىء يماثله فيما تبقى له من أيام.

منذ أعوام مضت كانت محطة الإرسال التليفزيونى فى أحد أقطارنا
العربية تستهل نشرات أخبارها بخبر واحد يتكرر كل يوم هو خبر
الحمام الذى يأخذه السيد الرئيس فى حوض سباحة القصر. ومهما كان
ذلك اليوم مملوءاً بالأحداث الخطيرة والوقائع التى تهتز لها الدنيا فقد كان
أول خبر وأهم خبر يجب أن يشاهده المواطن على الشاشة الصغيرة هو
حمام السيد الرئيس. وهذا الكلام ليس من باب المبالغة فى الوصف، وليس
حديثاً من أحاديث العبث واللامعقول، وإنما هو واقع كان مواطن ذلك
القطر العربى يشاهده منقولاً على الشاشة كل مساء ويضطر إلى قبوله وهو
صابر صامت.

وليس معنى ذلك بطبيعة الحال أن هذا الرئيس لم يكن صاحب مواقف
وطنية وبرامج إصلاح وتنمية نفذها باجتهاد فأخطأ وأصاب كما يفعل كل
البشر. فهذا موضوع آخر سيتولى التاريخ قول الكلمة الفصل فيه.

إننى هنا أتحدث عن الجانب الذى يتصل بتعامله مع وسائل الإعلام
باعتباره يمثل حالة مرضية ويقدم مثلاً صارخاً لمدى اجترأ بعض الحكام
على شعوبهم ومبلغ ما وصل إليه تفكيرهم لكيفية استخدام هذا الإنجاز
العلمى والعقلى بحيث يحيدون به عن مهمته الحضارية فى التوعية
والتثقيف ويحولونه إلى أداة إذلال للناس وتسفيه لعقولهم ويجعلون منه

مناسبة للتنفيس عن عقد الاستعراض وجنون العظمة.

لقد أزيح هذا الرئيس عن منصبه لأسباب كثيرة أخرى لاعلاقة لها بحمامه اليمومي الذي كان يأخذه أمام آلات التصوير ويعرضه كل يوم على الناس. ولكنني على ثقة من أن الشعب كله تنفس الصعداء عندما شاهد لأول مرة نشرة أخبار مرئية لا يكون الخبر الأول والرئيسي فيها هو «حمام السيد الرئيس». ولعل بعض القراء لا يرضيهم أنني أضرب مثلاً برئيس تم عزله وانتهى عهده ولم يعد له خطر أو شأن ويعتبرونني أفعل ذلك تقيّة وتجنباً للحديث عن أخطاء حكام مازالوا يتربعون على سدة الحكم أخشى بطشهم وبأسهم، ولاشك أن الحديث عن أخطاء رئيس خرج من الحكم أكثر أماناً من الحديث عن رئيس لم يخرج بعد، هذا صحيح، ولكن ما ليس صحيحاً هو أن الحاكّم إذا أقصى عن منصبه وجب التستر عليه والامتناع عن كشف أخطائه وجرائمه. وكان الحصانة التي تمتع بها طوال عهده الذي استمر لأكثر من ثلاثين عاماً لا تكفي حتى نضيف له حصانة أخرى بعد خروجه من الحكم. إن الحديث ليس حديث تذكير بمثالب الحكام، إنه تنبيه لخطورة هذا المنطق الإعلامي الذي يستعمله بعض الحكام بطريقة مشوهة ممسوخة فيسيئون إلى شعوبهم بمثل ما يسيئون إلى أنفسهم.

لا نملك رسداً دقيقاً لاتجاهات القراء في العالم العربي ومعرفة ما يقبلون عليه من قراءات أو ما ينفرون منه، وحتى لو أجرينا مثل هذا المسح فإن الصورة ستبقى ناقصة لأن القارئ محكوم بمجموعة من العوامل، أهمها أنه لا يستطيع الحصول على ما يريد من كتب نتيجة لما تقيمه سلطات الرقابة ومكاتب تحويل العملة من حواجز وعقبات أمام تداول الكتاب. وكل ما

يمكن فهمه من بعض الناشرين هو أن الشعر هذه الأيام بات لا يلاقى ذات الإقبال الذى كان يلاقه منذ سنوات مضت، وإن قراء اليوم أكثر إقبالاً على قراءة الأعمال الروائية والكتب التاريخية وما يتصل بالتراث والمذكرات والسيرة الذاتية. وإن صدق هذا القول فمعنى ذلك أن هناك أزمة يعانى منها الشعر على مستوى التواصل والعلاقة مع الجمهور، وهى أزمة لا تكمن فى الشعر وحده، إنها تكمن أيضاً فى هذه المرحلة التاريخية التى نمر بها والنمى خلقت مناخاً عاماً لا يصلح لقراءة الشعر، وليس معنى ذلك أن الشعر يريد هناء واسترخاء واستقراراً نفسياً يأتى كنتيجة لاستقرار الحالة السياسية والأوضاع الاجتماعية لكى تتأكد حاجتنا إليه، فلقد أثبتت التجارب بأن مراحل النضال والجهاد بحاجة أيضاً إلى الشعر الذى يذكى الهمم ويضئ النفوس ويكون زاداً روحياً ووجدانياً للمناضلين، ولم يكن الشعر ليحظى فى تاريخنا الأدبى بهذه المكانة الرفيعة إلا لأنه خاض معارك تأكيد الذات وترسيخ الهوية وأسهم فى تربية الوجدان المشترك بمثل ما أسهم فى بلورة القيم الحضارية لهذه الأمة. إذن فالقضية ليست قضية استقرار سياسى أو غياب هذا الاستقرار، إنها قضية مرحلة تاريخية عامرة بالتناقضات الداخلية والمؤامرات الخارجية والصراعات الدولية التى جاءت كنتيجة للفورة النفطية.. مرحلة تاريخية تميزت بعدم وضوح الأهداف الكبيرة التى تجتمع حولها الأمة كما كان الحال خلال مراحل التحرير الوطنى ولهذا غمرت الفوضى الآراء والأفكار وانتشرت الفتن والنزاعات الداخلية وصار الأخ يرفع السلاح فى وجه أخيه عربياً كان أو مسلماً، ونتظر حرباً تعيد بها تحرير الأرض وتصفية الحساب مع أعدائنا التاريخيين فإذا بالحرب التى تنفجر ضارية عنيفة هى حرب تنفجر بين بلدين إسلاميين، وخلال هذا كله تقوضت الكثير من الأحلام، وغمر التعتيم الكثير من الأهداف الكبيرة،

وفقدت الشعارات مصداقيتها، وتم تكريس الناطق الرسمي كممثل وحيد للفكر والثقافة، وأخرج المبدع الحقيقي من دائرة الفعل والتأثير، وأنتج كل هذا مناخاً من الإحباط والشعور بالخيبة والإحساس بلا جدوى الأشياء، وبرغم بؤادر الأمل التي صارت تلوح في الأفق منذ أن بدأ أطفال الحجارة يسطرون ملحمة النضال والثورة داخل الأرض المحتلة، ويفرضون نوعاً من التضامن العربي، ومنذ أن بدأت تهل البشائر بانتهاء حرب الخليج إلا أن الصورة مازالت لم تفقد قوامتها، وانعكس هذا الحال على منتجي الشعر أنفسهم الذين انقسموا بين شعراء الضحالة والغثائية وبين شعراء الجودة التي أفسدتها أمراض العظمة وتضخيم الذات وتضائل هامش الحرية الذي يسمح بالنقد والتعبير الصادق إلى أن وصل حده الأدنى، وانطفأت المشاعر الشقافية التي أضاعت قليلاً في بيروت وسقط كل شيء في ظلام الفتنة والحرب الأهلية وهاجرت أغلب المنابر الصحفية والشقافية إلى خارج الوطن، وفي حين أنكفأ شاعر على ذاته رافضاً أى تواصل مع الدنيا التي حوله، التحق شاعر آخر بمكتب الناطق الرسمي وقرر شاعر ثالث الانتحار المادى والمعنوى، وظل شاعر رابع يقاوم وحده الإعصار وصدأ السنين، زد على ذلك أن أشكالاً جديدة نسبياً على تراثنا الأدبى مثل «الرواية» استوعبت الكثير من أدوات الشاعر وأسلوبه وصارت قادرة على احتواء هذه التناقضات والتعامل مع الواقع الجديد وتلبية احتياجات القارئ بأكثر ما تستطيع القصيدة فتراجع بسبب ذلك الإقبال على قراءة الشعر وفقد الشاعر العربي مكانته التي ظل يحتلها على مدى القرون.

دونما تردد أو إبطاء أجبته قائلاً:

- التمثيليات التاريخية.

كان ذلك ردّاً حول سؤال ما أراه صالحاً لمشاهدة أطفالنا فى برامج الإذاعة المرئية. وكان دافعى إلى هذه الإجابة سبب آخر غير الأسباب التى ترد إلى الذهن عند الحديث عن مثل هذه التمثيليات، فهى بلا شك تستخدم اللغة العربية الفصيحة أداة للحوار مما يساعد فى القضاء على آفة الانفصام اللغوى التى يعيشها الطفل العربى عندما نفرس فى وجدانه جمال التعبير باللغة العربية الفصيحة منذ مراحل العمر المبكرة، ثم إن هذه التمثيليات بجوار قيمتها الترويحية والجمالية فهى تقدم قيمة معرفية، ومعنى ذلك أنها إثراء وإغناء لحصيلته العلمية بما تسرده من أحداث ووقائع تاريخية، وهى فوق هذا وذاك وسيلة ناجحة لتعميق إحساسه بالانتماء عندما يتصل موضوعها بالتاريخ العربى والفتوحات الإسلامية، فهى إذن مادة وجب تفضيلها على مواد التلفاز الأخرى تحقيقاً لهذا الهدف من الأهداف التربوية، ولكننى لم أكن أفكر فى هذه الأسباب عندما بادرت بإبداء رأى، إن هناك سبباً آخر أكثر اتصالاً بالجوانب العملية لتربية الأبناء، وهو أن هذه التمثيليات هى المادة الوحيدة التى يمكن أن يشاهدها الطفل العربى ويرى فيها بشراً يتكلمون ويتحركون على الشاشة وهم لا يمسون بين أصابعهم أو يضعون بين شفاههم ذلك الشئ الذى صار مكملاً لأى كائن تليفزيونى والذى اسمه السيجارة.

فلقد امتحنتنا الأقدار بعدد من المخرجين والممثلين الذين لا يستطيعون تقديم مشهد فى تمثيلية عصرية إلا إذا ملأوا الشاشة الصغيرة بدخان سجائرهم، يعبرون بها عن بهجتهم بمثل ما يعبرون بها عن يؤسهم، وكان التمثيل لا يستقيم إلا بامتصاص السجائر والمشهد يفقد قيمته الجمالية إذا بقى خالياً من المناقض.

ولاشك أن هؤلاء الممثلين والمخرجين يجدون أنفسهم فى مأزق شديد

الحرج عندما يضطرون إلى تقديم تمثيلات عن «موسى بن نصير» أو «طارق بن زياد» أو «خالد بن الوليد» حيث لا مجال للاعتماد على السجارة في الإخراج والتمثيل.

إننى أتكلم عن التمثيلية باعتبارها أكثر تأثيراً في المشاهد الصغير من البرامج الأخرى، فهو غالباً ما ينظر إلى نجوم الشاشة الصغيرة باعتبارهم مثله الأعلى الذين يحب تقليدهم والاقتراء بما يفعلون، ولكن ليس معنى ذلك أن بقية البرامج أفضل حالاً أو أكثر حرصاً على مصلحة المشاهدين. وكما يحدث في بعض الأماكن التي تخصص ركناً للمدخين وآخر لغير المدخين فإننى أقترح على اتحاد الإذاعات العربية أن يتولى تقسيم العمل في هذه الإذاعات على نحو يجعل المدخين يتفرغون للعمل بالإذاعة المسموعة حيث يبقى المجال أمامهم فسيحاً للتدخين كيفما شاءوا. في حين لا يظهر على الشاشة الصغيرة إلا من كان قادراً على هجر اللفائف البيضاء ومقاومة إغرائها.

هناك تعبير في أمريكا يقول: Medium is the message وأستطيع القارئ الكريم عذراً في استعمال هذا التعبير الأجنبي الذي صار قولاً شائعاً يختزل معنى يحتاج تفسيره إلى بضعة أسطر، فهو يتعلق بالوسائط الإعلامية الحديثة وبأكثر هذه الوسائل قوة وخطورة وهيمنة على حياة الناس أى «التلفاز»، هذا الإنجاز العلمى الذى بسط نفوذه على طابع الحياة العصرية منذ بداية ظهوره وهو يزداد مع الأيام نفوذاً وسيطرة بفضل ما يواكب نموه من اختراعات حديثة كأجهزة التسجيل المرئى وأقمار الاتصال الدائرة فى الفضاء الكونى وأجهزة التحكم الآلى على المدى البعيد وغير ذلك من الأنظمة الإلكترونية المسخرة لخدمته وتطويره، حتى انتقل هذا الجهاز

الإعلامى من كونه وسيلة اتصال يستهدف تحقيق مقاصد وأغراض وخدمة أهداف ومضامين تتعلق بالأخبار والإرشاد والترفيه والتوعية، إلى أن أصبح فى حد ذاته هو الهدف والمضمون، لم يعد مجرد أداة حيادية لنقل الآراء والأفكار والمعلومات ووسيلة لتعميق وعى الناس بالقيم والمثل والمفاهيم وإنجاز حضارى يستخدمه الإنسان وفق حاجاته ورغباته وتوجيهاته وإنما صار هو الذى يتحكم فى توجيه الإنسان وصارت الآراء والأفكار والمعلومات والمفاهيم والقيم تلون بلونه وتذوب فى شخصيته ، ويصبح الجهاز هو الفكر والقيمة والرسالة والمفهوم، لأنه أكبر من أن يكون مجرد وسيلة لأداء مهمة أو نقل رسالة، ولعل طبيعة الحياة فى أمريكا ونظام العلاقات بها هو الذى أنتج هذا التعبير الذى يتفق مع ما أصبحت عليه شبكات الإرسال المرئى هناك، حيث أضحي التلفاز مخلوقاً هائلاً مخيفاً مثل مخلوق «فرانكشتاين» الذى تمرد على صاحبه، فهو لا ينتمى إلا لذاته ولا يعترف بسيد إلا سيادته على نفسه. وهكذا أضحت الأداة - كما يقول التعبير الأمريكى - هى الرسالة، فلتفقد الأشياء معناها حتى لو كان هذا المعنى مثالياً عالياً أو قيمة أخلاقية، ولتفرغ من محتواها حتى لو كان هذا المحتوى ثقافة أو فكراً، إذ لا معنى ولا محتوى إلا لما يريده الجهاز، هذا الجهاز الذى صار مرشحاً أن يتحكم لا فى آراء الناس وأفكارهم فقط وإنما أيضاً فى أمزجتهم وطبائعهم وأخلاقهم وأسلوب معيشتهم، بحيث لا يتسهجون إلا بأمره ولا يحزنون إلا بعد مشورته، لا يأكلون إلا ما يريده السيد الجهاز ولا يشربون إلا ما يختاره لهم، لا يتزوجون إلا بإذنه ولا يرافقون إلا من أوصاهم بمرافقته، سوف يطيعونه فى كل صغيرة وكبيرة وسوف ينجبون أطفالهم حسب المقاييس والمواصفات التى يضعها لهم. وبرغم ما تقوله استطلاعات الرأى العام حول الانتخابات الأمريكية فإن

عدسات التصوير التليفزيونى هى التى ستتولى اختيار الرئيس المقبل للولايات المتحدة الأمريكية.

ولكن السؤال الذى يبقى عالقاً بحلوقنا نحن العرب هو، لماذا يا ترى نكتسب هذه العدسات لوناً صهيونياً؟

لا أدري إن كان هناك كتاب استخدموا هذا التعبير وجعلوه عنواناً ثابتاً لأبوابهم الصحفية قبل أن يستخدمه الدكتور سعيد عبده ويجعله عنواناً لمقالاته الطبية الأسبوعية بأخبار اليوم منذ أعوام كثيرة مضت وهو «خدعوك فقالوا» الذى كان يكتبه تحت اسم مستعار هو «بقراط» أشهر الأطباء فى عصر ما قبل الميلاد.

وقدم من خلاله جهداً موسوعياً فى مجال التوعية الصحية والطب الوقائى وإزالة الأوهام ومحاربة الخرافات التى تتصل بالمرض والصحة. ولا أدري إن كان هناك من تلاميذ الأستاذ عبده من اهتم بجمع هذه المقالات فهى مرجع يحتاج إليه كل إنسان. وما يعينى اليوم هو أن هذا العنوان الذى اخفى من صحافتنا مع رحيل الدكتور (سعيد عبده) يجب أن يعود لأن هناك فى حياتنا من وسائل التضليل والتمويه والخداع ما يوجب عودة هذا العنوان ليكون ملمحاً ثابتاً فى الصحافة التى تهتم بتوعية القارىء وفرز الحقائق من بين الأباطيل التى تدخل بيته مع الضوء والهواء. ولن أكون مبالغاً إذا قلت إن أكثر أساليب التضليل والتمويه جاءت إلينا مع هذه الثورة التقنية الإلكترونية فى مجال الإعلاميات، وبقدر ما جلبت هذه الثورة توعية وترفيه وما أغنت به حياتنا من تدفق الأخبار والمعلومات فقد جاءت تستصحب معها أساليب جديدة فى التمويه واستلاب عقل المواطن وتكيفه مع برامجها والترويج لأفكار ليست دائماً ذات مضامين هادفة أو تخدم

قضايا التطور والبناء، لقد دخل التلفاز حياتنا دخولاً عاصفاً مثيراً وكأنه ساحر يدخل إلى الساحة بالعباءة وحيله وفنون الخداع التي يتقنها، تدعمه الأجهزة الإلكترونية والأقمار الصناعية، وتنشأ من حوله صناعات جديدة مثيرة، أطباق وهوائيات تملأ أسطح البنايات، وأشرطة وآلات تصوير وتسجيل تملأ أرفف الخزائن في كل البيوت، وأسلاك وكوابل وأندية ودكاكين وشركات احتكارية ومطابع سرية وأخرى علنية لنسخ الشرائط والأفلام، بكل ما يتبع ذلك من وسائل الغش والتزوير والتهرب والأسواق السوداء، جالباً معه أساليب جديدة للترفيه وتزجيه القراغ مع كميات كبيرة من الصخب والتمويه والأكاذيب، وهي جميعها تستدعي أن ترافقها حملة تثقيف وتوعية وملاحقة مستمرة تكشف الخبيث من الطيب، والزبد عما ينفع الناس، حملة توعية تقول للمشاهد خدعوك فقالوا في التلفاز أو قالوا في أشرطة الفيديو أو قالوا في الإعلانات التي تقدمها الشاشة الصغيرة أو قالوا في مسلسل دالاس أو داينستي أو غيرها من تمثيلات وبرامج تروج لقيم هجينة لا تتفق مع أخلاقيات مجتمعاتنا ومع ذلك نعرضها في إذاعاتنا العربية. وليس معنى ذلك أنني أسعى لخلق معركة بين الكتاب ومحطات الإذاعة المرئية أو أريد تحريض الصحافة ضد أجهزة الإعلام السمعية والبصرية، ولكنني أدرك أن لهذه الأجهزة أخطاراً جانبية ترافق كل ما تقدمه لنا من نفع وترفيه، وكثيراً ما رأينا إذاعات مرئية تتولى بنفسها تقديم برامج لكشف أوجه التضليل في بعض المواد الإعلامية التي تقدمها، وأذكر أن إحدى محطات التليفزيون البريطانية كانت تقدم برنامجاً، لعله مازال مستمراً، عنوانه «هذه الحياة» مهمته هي متابعة شكاوى المشاهدين الذين ينخدعون في البرامج الإعلامية أو المواد الإعلامية، وتتولى مقدمة البرنامج كشف هذه الشركات التي باعت إنتاجها أو قدمت إعلاناتها الزائفة

للمحطة، ولاشك أن مثل هذا البرنامج لن يستطيع أن يقول كل شيء أو يفضح كل شيء ولكنه يؤكد إلى أى مدى يدرك أهل هذه المحطات مدى خطورة ما يقدمونه للمواطن كل يوم، ويضع المسؤولية كاملة على أجهزة التوعية والتثقيف مثل الصحافة لتتولى مسؤولياتها فى مرافقة هذه البرامج بالنقد والتقويم وكشف المواد المغشوشة التى تقدم فى أغلفة من الأضواء والألوان.

